1) النصوص

ساهم شعراء سؤال الذات بإضافات وازنة مكّنت من تطور الشعر العربي. عمل هؤلاء على المزاوجة بين تقليد القدامى والتجديد بالتركيز على الذات وأحاسيسها والحلول في الطبيعة. وقد واكبت هذا التطور دراسات نقدية عملت على رصد الظاهرة واستخلاص خصائصها وتحديد شروط وجودها، مستندة في ذلك إلى منهج علمي ودراسة موضوعية وانفتاح على الغرب. ويعد عبد القادر القط أحد هؤلاء الذين رصدوا الظاهرة الرومانسية في الشعر العربي خاصة في كتابه «الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر»، فما القضايا التي يُعالجها في نصه الماثل أمامنا ؟ وما طرق العرض التي اعتمدها في معالجته ؟

نستطيع من خلال ما ورد في الفقرة الأولى من مؤشرات من قبيل الحديث عن «الشعراء الوجدانيين»، وعن أنهم «يختلفون فيما بينهم»، أن نفترض أن الكاتب سيدقق في نصه في الفروقات بين الشعراء الرومانسيين، وفيما يجعلهم مختلفين عن بعضهم البعض.

وقد انطلق الكاتب من مقدمة أبرز فيها صعوبة الوصول إلى مفهوم ينتظم التجربة الوجدانية كلها، ثم انتقل إلى الاستدلال على ذلك بالتركيز على اختلافات جوهرية بين الرومانسيين سواء أتعلق الأمر بالطبيعة أم الحب والكآبة، لينتقل إلى عقد مقارنة بين المهجريين وباقي الشعراء العرب الرومانسيين، وليؤكد في الأخير صعوبة تعميم السمة على التجربة كلها.

وبالرغم من الاختلافات بين الوجدانيين العرب، فإنه بالإمكان استخلاص بعض سمات شعرهم من خلال النص. فالطبيعة تحضر في شعرهم بدرجات، كما أن الحب يحضر في شعر بعضهم ويخفت في شعر غيرهم. نفس الأمر ينسحب على النزعة المأساوية. أما النزعة التأملية فقد حضرت بشكل أساس في شعر شعراء المهجر بينما خفتت في شعر غيرهم من الرومانسيين.

لقد اعتمد الكاتب في عرض أفكاره طرقا ساهمت في إيضاح التصور وتفسير وجهة النظر. اعتمد الكاتب المقارنة حين قارن بين حضور النزعة التأملية في شعر المهجريين، وغيابها في شعر غيرهم من الرومانسيين العرب. أضف إلى ذلك استناد الكاتب إلى حجج واقعية (الإحالة على الشعر) للاستدلال على غياب الطبيعة في شعر بعض الرومانسيين العرب. ثم إن الكاتب تبنى في نصه تصميما منهجيا محكما تمثل في الابتداء بعرض أطروحته (صعوبة تعميم الخاصية على شعر الوجدانيين)، والانتقال إلى الاستدلال، مستحضرا في ذلك الرأي المخالف (وقد يُقال...)، ليستنتج في الأخير صعوبة التعميم فيما يخص مضمون التجربة الوجدانية. من جهة أخرى، استند الكاتب إلى لغة تباينت بين التقريرية والتصويرية (الحنين الغائم، تشحب في شعره..)، إضافة إلى كونها لغة متسقة بواسطة روابط التفسير (.. ذلك لأن هؤلاء الشعراء...)، والعطف (يعبرون عنها.... ويبسطون أحيانا من طبيعتها..)، والاستنتاج (وهكذا نؤكد صعوبة..). كما اتسقت لغة الكاتب بواسطة التكرار المعجمي.

يتبين مما سبق أن الكاتب عالج في نصه قضية الفروق بين الشعراء الوجدانيين فيما يخص حضور الطبيعة والحب والكآبة والتأمل في شعرهم. وقد اعتمد في عرض قضيته طرقا للعرض تمثلت بالخصوص في المقارنة والحجاج والتصميم المنهجي واللغة المتسقة والمتباينة بين التقرير والتصوير.

وأعتقد أن الكاتب استطاع الاستدلال بالمقارنة والحجج على أطروحته التي لم يتوان في تقديمها منذ بداية النص، وأبرز أن الخاصية الواحدة تبرز عند شاعر أو شعراء، وتضعف عند آخر أو آخرين، وأن البيئة والثقافة لها دور مهم في إحداث تمايزات وفروق بين شعراء هذه التجربة لدرجة أنه يصعب تعميم السمة في هذا الإطار. لذلك، فإن نص القط يمثل نموذجا لتبني المقاربة العلمية التي تتجنب الانطباع والتعميم، وتقف على الفوارق والتدقيقات.

2) المؤلفات

المقطع الذي نحن بصدد دراسته مقتطف من الفصل السادس عشر الذي يُعدُّ من الفصول الأخيرة من رواية «اللص والكلاب» التي يصل عددها إلى ثمانية عشر فصلا. يتعلق الأمر باشتداد الحصار على سعيد مهران الذي ضاق عليه المكان والزمان وصار على مرمى قدم من البوليس. وفي هذه الأثناء العصيبة، اختفت نور ليُثير هذا الاختفاء تساؤلات وخوفا لدى مهران، بل ليتعدى ذلك إلى الاعتراف الصامت بالحب.

إن نور قوة فاعلة آدمية لعبت دورا أساسيا في سيرورة أحداث الرواية ونموها. وقد تمثلت فاعليتها في مساعدة مهران على تحقيق رغبته في الانتقام. فقد مكنته من سيارة مرافقها الذي استدرجته إلى مكان خال، كما مكنته من بذلة ضابط حتى يتسنى له التستر وتحقيق الرغبة. ثم إنها أمنت مقامه ببيتها، ومثلت نافذته على العالم الخارجي.

وقد شكَّل اختفاء نور بداية النهاية بالنسبة إلى مهران. لذلك فإنه إذا كانت رغبة مهران هي الانتقام من خيانة الزوجة والتابع عليش والصديق القديم رؤوف علوان، فإن نور إلى جانب طرزان مثَّلا الطرف المساعد على تحقيق هذه الرغبة.

ونظرا إلى الدعم الكبير الذي آزرت به نور سعيد مهران، فإنه لحظة افتقادها أحس بشعور الحب والاحتياج إلى وجودها، كما اعترف بفضائلها، الشيء الذي مثل بُعدا نفسيا من أبعاد رواية «اللص والكلاب».